

المولود من الله لا يخطئ

من رسائل القديس

الأب صفرونيوس القصيرة

١– صفرونيوس إلى الإخوة في البرية، سلامٌ في الرب مصدر كـــل شـــيء، والذي بدونه لا سلام لنا حتى مع أنفسنا، فكم بالحري مع اخوتنا.

الجدلُ الكثير يزعج المبتدئين، ومع أنه قد يُفيد البعض، إلا أن أضراره أكثر من فوائده. أما الذين تدرَّبوا على حياة الفضيلة والعبادة الحسنة، فهم بالتأمل والاختبـــار، يدركون الكثير من الأسرار، ومتى نموا في حياة التأمل وهدأت الأوجـــاع الداخليـــة، امتلك الإدراكُ عندهم قدرةً على فهم أسرار الله، وقويت جذور الحياة الجديدة، ونمـــا فيهم زرع الله.

٢– أردت أن أكتب لكم عن معنى ذلك النص السِّري الجميل المملوء بالمعاني الفائقة، وهو القول الإنجيلي: "المولود من الله لا يخطئ". ومع أن ضمائرنا تشهد علينا من آنٍ لآخر أننا لسنا بلا خطية، كما قال الإنجيلي نفسه الذي كتب نفس الكلمـــات السابقة بوحي الروح القدس: "إن قلنا إننا بلا خطية نضل أنفسنا وهذا لـــيس الحـــق الذي فينا"، أي أننا نعثر من آنٍ لآخر، ونعترف بهذه العثرات للشـــيوخ لكـــي ننـــال الشفاء. ثم أن الإنجيلي نفسه يقول: "كتبت لكم هذا لكي لا تخطئوا، وإن أخطأ أحدٌ، فلنا شفيعٌ عند الآب هو يسوع المسيح البار الذي صار كفارةً". ولأن المعنى السِّـــري غير ظاهر، أردت أن أضع أمام محبتكم ما سمعته وما استلمته من الشيوخ الذين عاشوا حياة العبادة الحسنة. لقد سلَّمنا هؤلاء أن المعنى الظاهر لهذه الكلمات: "المولود من الله لا يخطئ"، أي لا يفقد إيمانه بالدينونة الآتية، فهو كابنٍ لله، لا يمكنه أن يقع في هـــذا الخطأ الذي يقع فيه الهراطقة، وهو إنكار القيامة والدينونة.

٣– كلٌّ مَن يخطئ يموت، والخطية ليست من الإيمان، والإيمان يشهد أن ابن الله أدان الخطية، وأن الذي بلا إيمان، إنما يقع تحت حكم الدينونة.

ومَن هو المولود من الله إلا الذي يؤمن بأن يسوع هو المسيح الـــذي جـــاء وتجسَّد، وهو جوهر رسالة الإنجيلي يوحنا الذي نرى فيه هذه الكلمات الفائقة، والتي لا يجب أن نعزلها عن الرسالة، لأننا متى عزلناها، أخطأنا في فهمها.

لقد أنكر الهراطقةُ القيامة، وأنكر الآخرون الدينونة، إذ حَسِبوا أن الجسدَ لا يقوم من التراب، ولا ينهض في اليوم الأخير. وكلُّ هذه تعاليم مضادة ضد تجسد ربنا يسوع المسيح، وضد قيامته أيضاً. ولذلك، المولود من الله لا يخطئ؛ لأنه يعرف أن الابن تجسَّد، وأن الدينونة هي على ثمار أعمال المحبة. ومن جهة هذا الأمر بالذات، لا يخطئ المولود من الله، لأن القيامة والدينونة آتية.

٤– والمولود من الله لا يخطئ بمعنى أنه لا يسقط في خطية الارتداد؛ لأنه يعلم أن مصدر كل شيء، إنما هو الآب السماوي، وأنه بالإيمان به يُولَد منه في ابنه يسوع المسيح وبالروح القدس. فهو لا يخطئ في معرفة الآب السماوي، ولا يخطئ في معرفة أنه بدون محبة الله لن يرث ملكوت السموات.

٥– ومِن المولودين من الله الذين لم يخطئوا فيما ذكرناه من معاني محددة: أغناطيوس وبوليكاربوس وغيرهم من الشهداء الظافرين، فالشهداء لم يحسبوا أن العالم يستحق شيئاً، لأنهم مولودين من الآب وأسلموا أجسادهم بدون تردد للسباع والنار وصنوف العذاب الأخرى.

٦– ونحن نُولد مثل الشهداء، من الله عندما نرفض العالم. والمولود من الله حقاً يثبُت، ومهما اشتدت الحرب عليه لا يرتد ولا يفقد بنوَّته، ولو ظل يصارع حتى آخر نَفَس، فهو مجاهدٌ، وتعينه ولادتُه من الله على الثبات في الجهاد؛ لأنه بدونها يهلك. وكلُّ مَن يحفظ نفسه يثبُت ليس بالكلام، وإنما بالحياة التي تتأمل في أقوال الله الحية في الأسفار الإلهية، فهي صوت الدينونة الذي يحكم على العالم ومفاسده.

٧– فهل لا نخطئ بالمرة؟ لقد قال واحدٌ من الرسل الاثني عشر إننا في أشياء كثيرة نعثر جميعاً. ولكن الفرقَ بين الخطية والعثرة ظاهرٌ؛ لأن الخطية تقود إلى الموت، أمَّا العثرة فهي صادرة من الطبع الضعيف، وهي عثرةُ طفلٍ يتعلم المشي. وأولاد الله لا يخطئون ولا يرتدون عن الإيمان، وهي خطية الموت التي قِيل أن لا نطلب مغفرتها للآخرين؛ لأن الإيمان الذي يهب المغفرة هو غير كائن وبالتالي هي خطية موت.

وهؤلاء المرتدُّون لا يثبتون في الآب والابن والروح القدس. أمَّا الذين لا يرتدُّون وكان فيهم ضعفٌ ظاهرٌ، فهؤلاء بكل يقين يعثرون ولكنهم يتابعون المسيرة.

٨– وقد وضعت الكنيسة الجامعة عدة قوانين معروفة للمرتدِّين، وهي قوانين أقرتها المجامع المسكونية والمكانية. فإذا كانت القوانين موضوعة للمرتدِّين من أجل عودتهم لشركة الكنيسة، فواضح أن هذه القوانين تؤكد أن الذين يولدون من الله في المعمودية المقدسة يمكن أن يجحدوا الإيمان في حالات الضعف، ولكن لأنهم يرغبون في العودة، صارت رغبتهم في العودة شهادةً على أنهم مولودين من الله، ولذلك يجب تطهيرهم بالتوبة وبالاعتراف وبالنسك. أمَّا الذين لا يرغبون في العودة، فهؤلاء متى ماتوا في الارتداد أكَّدوا أنهم لم يُولدوا من الله، ولعل المثل الصادق الذي يدلُّ على هؤلاء، هو أريوس الذي كان قساً وجحد الإيمان ومات في جحوده.

٩– والذين لا يعودون هم مثل الذي دَفَنَ الوزنةَ ولم يربح منها شيئاً، والوزنةُ هي ختم المعمودية المقدسة الذي لم يستفِد منه. ونحن نعلم أنه في زمان الاضطهاد، لَبِسَ موعوظون أكاليل مؤمنين ارتدُّوا، كما حدث مع شهداء سبسطية وغيرهم.

١٠– ينبغي علينا أن ندرس تاريخ الكنيسة جيداً، وحياة الآباء الذين سبقونا لكي نفهم كيف نفسر أقوال الله الحية تفسيراً سليماً يتفق مع التسليم الرسولي.

١١– وأمَّا نحن الذين أدركنا المعاني السابقة، فلنَخَف من الذي بعد أن اِتَّضع، سوف يجلس للدينونة، ولنطرح أنفسنا عند قدمي الرب الفادي لكي ننال الرحمة.

صلوا لأجلنا. يصلي الأخوة لأجلكم. سلامٌ في الآب والابن والروح القدس، إلهنا الذي وُلِدنا منه للحياة الأبدية.

\+ + +